



## محمد بن الحسن الحجوي ومشروعه التربوي

أعلام  
تربوية

د. محمد المسكيني

إن ما تعيشه المنظومة التربوية اليوم في بحثها عن مسار الإصلاح القويم، في ظل التحولات الكبرى التي يشهدها العالم نحو مجتمع المعرفة والتقنية، وبروز أسئلة الخصوصية والكونية في توجهات المنظومات التربوية الوطنية، يفرض على الباحثين مساءلة مسارات الإصلاح عبر طرح سؤال من نحن وأين نحن وماذا نريد أن نكون؟ وعبر التنقيب في التراث التربوي المغربي المغيب عن أطروحاتنا الإصلاحية بهدف استشراف المستقبل على أسس متينة واستخلاص الدروس والعبر من تجاربنا المعاصرة. وإن من بين أهم تلكم التجارب الإصلاحية في المغرب الحديث، العمل الذي قام به المفكر المغربي الفقيه محمد بن الحسن الحجوي.

فما هي أهم آراءه الإصلاحية التربوية؟ وأية دروس نستفيد من سيرة الرجل وتجارب التربوية؟

يعد محمد بن الحسن الحجوي<sup>1</sup> من أبرز المفكرين المغاربة المعاصرين الذين جمعوا بين فقه الشريعة وبين فقه الواقع، الشيء الذي سيكون له الأثر البارز على آرائه الإصلاحية في شتى المجالات. فالعلامة الحجوي يعد فقيها مبرزا دل على ذلك تكوينه العلمي الشرعي في القرويين وأيضاً مؤلفاته وأبرزها في الموضوع كتابه: "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي". وقبل التطرق لملامح مشروعه لإصلاح التعليم بالقرويين، نتعرف جوانب شخصيته وتكوينه، وذلك من خلال ترجمته لنفسه في الفكر السامي،<sup>2</sup> فالعلامة الحجوي المزداد سنة (1291هـ- 1874م) في أسرة علمية حظي فيها بعناية وتربية خاصة من والدته ووالده تشرب من خلالها حب العلم وشغف الاشتغال به. درس المبادئ الأولى للعلوم الشرعية على الفقيه محمد بن عمر السوداني، ثم على الفقيه محمد بن الفقيه الورياجلي وفي سنة (1307هـ) دخل القرويين على شيوخها آنذاك إلى سنة (1316هـ) حيث أذن له الشيوخ

<sup>1</sup> - من مصادر ترجمته مختصر العروة الوثقى (ص: 2)، الفكر السامي (6-16)، الدراسات القرآنية بالمغرب (ص: 201) التفسير والمفسرون بالمغرب الأقصى ص: 122

وقد كتبت في آراءه الإصلاحية عدد من الأبحاث، نذكر من أبرزها: كتاب: "الفكر الإصلاحية في عهد الحماية. محمد بن الحسن الحجوي نموذجاً". لأسية بنعدادة. و"الاجتهاد والتحديث. دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب" لسعيد بنسعيد.

<sup>2</sup> - انظر الفكر السامي في تاريخ الفكر السامي، ص: 6-16

في إلقاء الدروس. لما رآوه من جده وكده وتعظيم لشيوخته. وفي نفس الوقت أخذ يمارس التجارة، وفي سنة (1318هـ) ولج سلك الوظيفة في صوائر دار المخزن ليترقى فيها بسرعة، ويتعمق بالتالي وعيه بالقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية في واقع مضطرب جدا أوائل فرض الحماية بالمغرب. فيجد نفسه بعد أن أصبح سفيرا مضطرا إلى الانسحاب من سلك المخزن المضطرب آنذاك، ويعود إلى نشر العلم وإلى تحريك تجارته.<sup>3</sup> وفي سنة (1330هـ) سعي وزيراً للتعليم ليظل في هذا المنصب لأزيد من عقدين، وكانت له إنجازات تستحق أن تذكر فتشكر ومنها إدخال العربية والدروس الدينية والقرآن الكريم إلى المدارس الابتدائية والسعي إلى إحياء العلوم الإسلامية والتشبع من العلوم العصرية.

إن سيرة هذا العلم تنبئ عن سيرة رجل دولة مخلص لدينه ووطنه، اجتمعت فيه أسباب النجاح والتي نجملها في ثلاثة:

- أولها: الجمع بين فقه الشريعة وفقه الواقع أمر لا بد للمجتهد.
  - ثانيهما: العمل من داخل مؤسسات الدولة بهدف الإصلاح إذا توفرت الشروط المتيحة للحرية في العمل والإبداع.
  - ثالثها: الكفاية المالية للعالم عن راتب الوظيفة شرط أساس لامتلاك الحرية في إبداء الرأي والإصلاح.
- إن اشتغال الحجوي بوزارة المعارف تلك المدة الطويلة وطبيعة تكوينه، وانشغاله بالعلم، ومعرفته بواقع المغرب في السياق الدولي وهو الرجل ذو الرحلات الكثيرة والتي وثقها في كتابه "الرحلة الأوروبية"، واشتغاله مع المستعمر الفرنسي، جعله يحمل مشروعا إصلاحيا كبيرا يرى في التعليم مدخلا للانعقاد من الاستعمار الذي من أسبابه ليس طمع المستعمر وتربصه فحسب وإنما قابلية البلاد وأهلها للاستعمار، وتلك هي الطامة الكبرى المتجددة في كل عصر. يقول الحجوي رحمه الله: "وليجهتدوا أن يتخرج منهم مدرسون ماهرون يحاربون الأخلاق التي أوجبت انحطاطنا في الهيئة العالمية، ويحاربون تطرف الأفكار التي أضاعت وقتنا، وليحاربوا عدو الإسلام الألد داء الأمية..."<sup>4</sup> وقد جعل من أسباب نهضة التعليم ما يلي:

— تكوين مدرسين من أبناء الوطن معتزين بهويتهم ناهلين من العلوم الإسلامية والأوروبية.

— التكامل المعرفي بين العلوم الدينية والعلوم العصرية.

<sup>3</sup> - انظر الفكر السامي في تاريخ الفكر السامي، ص: 12-13

<sup>4</sup> - الفكر السامي ص: 15-16

— التدين الصحيح والتحلي بالأخلاق الفاضلة، فالإعجاب بتقدم الغرب لا يعني الانسلاخ عن الهوية الدينية والوطنية.

— تعليم الرجل والمرأة على حد سواء.

— رفع أجرة الموظفين والمدرسين حتى لا يضطروا لمزاولة مهنة أخرى.

وفي مجال المناهج التعليمية ينتقد الحجوي المناهج الدراسية في القرويين قائلا: "ومن الغريب في أحوال القرون الأخيرة أن النحو الذي لا تدعو ضرورة لإقامة أدلة على قواعده، افتعلوا له أدلة، فضخموه وصعبوه، والفقه الذي يتأكد بمعرفة أدلته، تركوها وضخموه بكثرة الاختصار، وكثرة المسائل النادرة، وإن إفناء العمر في المسائل النادرة التي تمضي الأعمار ولا تقع واحدة منها قليل الجدوى، وهي غالب ما زاده المختصر على "المدونة" على أن في "المدونة" من المسائل بل الأبواب النادرة الوقوع كثير وغير خفي أن الاشتغال في دراستها لمن ليس بحافظ، ولا يبقى على باله منها إلا القليل ضياع للعمر، فطلاب الفقه محتاجون إلى كتاب بين الصراحة واضح لا يحتاج إلى شرح جامع للمسائل الكثيرة الوقوع من كل باب دون الندارة أو المستحيلة، فهذا تكون الدراسة والتعلم، وهذا الذي يفيد المبتدئين، بل والمتوسطين..."<sup>5</sup>

ويمكن تحديد ملامح التجديد في المناهج التعليمية عند الحجوي في ما يلي:

— على مستوى تجديد المقررات: يدعو الحجوي رحمه الله إلى التخلي عن الكتب المغلقة الشديدة الاختصار وكذلك كانت دعوى ابن خلدون من قبله، وإلى اختيار الكتب المفيدة، وتنقيح كتب الفقه.

— على مستوى البرامج الدراسية: يدعو الحجوي إلى تنظيم محكم متدرج للبرامج التعليمية، والشروع بتعليم الكتابة والقراءة باللغة العربية الأصلية وبث العقيدة الصحيحة والضروري من الفقه في المتعلمين الصغار.

— على مستوى الأساليب التربوية: يوجه الحجوي إلى تثقيف الصغار بالآداب والتهديب الديني الصحيح وتمارين طلبه الفقه على أعمال النظر وتدريبهم على التفكير النقدي.<sup>6</sup>

وفي هذا الصدد باشر الحجوي سنة (1332هـ) بتكليف من السلطان المولى يوسف تنظيم المجلس التحسيني لإصلاح التعليم بالقرويين بمنهجية تواصلية تشاركية مع علماء القرويين وقد أنجز هذا المجلس برنامجا شاملا لتطوير الدراسة بالقرويين، وكان يتألف من 102 من المواد مقسمة على عشرة أقسام، لكن لم يكتب لأعمال المجلس أن تخرج إلى الوجود وحرص البعض على أن يبقى المجلس صوريا لا حياة له ولا ظهور.

<sup>5</sup> - الفكر السامي، ص: 706.

<sup>6</sup> - انظر الفكر السامي، ص: 698-708.

وبهذا الصدد يقول: "وأقول من غير تمدح أو تبجح: إن ذلك القانون لو خرج من حيز الخيال إلى حيز الأعمال، لكان محييا للقرويين، مجددا لحياتها التدريسية تجديدا صحيحا متينا... ولكن مع الأسف المكدر تداخل في القضية ذوو الأغراض الشخصية... وأبقى المجلس سوريا لا حياة له ولا ظهور إلا في الحفلات الرسمية، والمقامات التشريفية، وهكذا يفعل التحاسب وحب الأثرة بين نبلاء المغاربة الذين اشربوا في قلوبهم في قلوبهم حب إثارة الأغراض الشخصية على المصالح العمومية، بل والدينية."

إن عدم تمكن الحجوي من تحويل أفكاره الإصلاحية إلى برامج عمل واقعية، باستثناء بعض الإصلاحات التي قام بها بحكم وظيفته في إطار الممكن، يدفعنا إلى التساؤل عن شروط تحقق الإصلاح في المجال التربوي باعتباره مجالا يخص المجتمع بجميع مكوناته والدولة بجميع أجهزتها وعن ضرورة وجود الحضان المجتمعي والمؤسساتي لإصلاح كهذا في إطار مشروع مجتمعي تبلوره قناعة الجميع بجدوى التغيير وضرورته.